سنة الله تعالى في الاستدراج من خلال القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

إعداد

محمد إبراهيم علي فتح الله

باحث دكتوراه بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسوان

أ.د/ محمد أحمد حسن الخولي

أستاذ الدراسات الإسلامية، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة جنوب الوادي

د/ سناء محمود رشيدي غزالي

مدرس الدراسات الإسلامية بكلية الآداب جامعة أسوان

(ملخص البحث)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء، والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرا. وبعد..

فيهدف هذا البحث إلى لفت نظر العباد إلى سنن الله تعالى عامة، وإلى سنة الاستدراج خاصة، فقد يظن الإنسان أنه على الحق وهو على الباطل، وإنّ من سنن الله تعالى في خلقه أن يستدرج المكذبين الكافرين من حيث لا يعلمون، فالاستدراج في حد ذاته عقاب من الله وجزاء سنني للكفرة والعصاة أفرادًا كانوا أم أممًا، لكن طبيعة الاستدراج تقتضي الغفلة عن الجزاء بسبب إنعام الله عليهم.

والقرآن الكريم عندما يخاطبنا فهو يخاطب الحاضر الموجود بما حل للأمم السابقة، فالقرآن حدَّث المسلمين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم بما حصل لفرعون وهامان وجنودهما، وقارون وعاد وثمود وغيرهم من الذين استدرجوا بسبب غواية الشيطان لهم، وظنوا أنه ليس هناك قوة في الأرض قادرة عليهم، فمناهم الشيطان وغرهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

وإذا كانت سنة الاستدراج هلاكًا للكافر، فإنها عظة وعبرة للمؤمن في كيفية مقابلة النعم الإلهية، فنعم الله تعالى تقابل بالشكر، فإذا غفل العبد المؤمن أو نسي شكر النعمة بشكر المنعم فهو مقصر وغافل، فإذا قابل النعمة بالمعصية فهو مستدرج.

ولقد قمت بعمل خطة البحث، وقد اقتضت طبيعة البحث، تقسيمه إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين ، وخاتمة، وذلك على النحو التالى، المقدمة: وتحتوى على أهمية البحث، وخطته.

ثم التمهيد وفيه: معنى سنة الاستدراج . والمبحث الأول: الأدلة من القرآن الكريم على سنة الله في الاستدراج. والمبحث الثاني: أين المسلمون من هذه السنة الإلهية؟ وما هي آثار مخالفتها؟.

ثم زيلت البحث بخاتمة بها أهم النتائج، والتوصيات، ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع.

وأسأل الله تبارك، وتعالى، أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، ويزدنا علمًا، وأن يوفقنا لطاعته، إنَّه ولى ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(الكلمات المفتاحية)

سنة الله – الاستدراج – مُستدرج .

(Research Summary)

"In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful"

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the Master of the Prophets and Messengers, our master Muhammad, may God bless him, and his family and companions. And yet.

One of the laws of God Almighty in His creation is to lure deniers and unbelievers from where they do not know. Luring in itself is a punishment from God and a penalty according to His laws for the unbelievers and disobedient people, whether they are individuals or not. However, the nature of luring requires ignoring the punishment because of God's blessings upon them.

If the year of enticement is destruction for the infidel, then it is a sermon and a lesson for the believer on how to respond to blazing blessings. The blessings of God Almighty are met with gratitude, and if he meets a blessing with disobedience, then he is lured.

Keywords: God's - Lurikg - Groceries .

الحمد لله رب العالمين الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، سيدنا محمد صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه وسلم. وبعد

سأتحدث بمشيئة الله تعالى، فى هذا البحث، عن سنة من سنن الله تعالى، ألا وهي سنة الاستدراج، لكي ينتبه العبد إلى نعم الله تعالى عليه، فيؤدي شكرها حتى لا يكون من المستدرجين.

وأسأل الله تبارك وتعالى، أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يوفقنا جميعًا لطاعته، إنَّه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

المقدمة:

إن سنن الله تعالى عامة تحتاج إلى تدبر واعتبار، وسنة الاستدراج خاصة تحتاج إلى نظر في أحوال الأمم السابقة، وما حدث لهم عندما خالفوا أمر ربهم، وإن مثل هؤلاء الطغاة متواجدون في كل زمان ومكان، وألا لما جاء البيان الإلهي محذرًا لأمثالهم، وهؤلاء الطغاة الذين يقعون تحت الاستدراج يكونون في العادة مدفوعين بما يحصل لهم من نعمه الله عليهم ظانين أنها خير لهم مما يدفعهم إلى المزيد من الاستمرار في الطغيان والظلم.

ولذلك فإن بعض الأفراد يري في أعماله ومكانته بين الناس بأنه مميز وأنه على صواب، في حين أنه قد يكون على خطأ وأنه مستدرج ولا يري ذلك ويدفعه غروره إلى الكفر بالله ونعمته، بل أحيانًا يصل به الحد إلى الادعاء بما ليس فيه من أفعال، ولو رجع مثل هؤلاء إلى أنفسهم لربما وجدوا أنهم في الطريق الخطأ، على الرغم مما يحصل لهم من نعمة وخير ورفعة بين الناس.

أهمية البحث:

١- تظهر أهمية هذا الموضوع في بيان المحافظة على النعم التي أنعم الله بها على عباده، ويكون ذلك بالمداومة على شكر المنعم سبحانه وتعالى.

٢ – إنّ معرفة سنة الله تعالى في استدراج الكفار والعصاة تجعل الإنسان دائمًا في حذر من عقاب الله تعالى له.

٣ – وتظهر أهمية الحديث عن سنة الاستدراج في أنها تجعل الأنسان يحاسب نفسه يومًا فيومًا، فيحاسب نفسه على أقواله وأفعاله.

أهداف الدراسة:

١- الإسهام في شحذ همة الأمة للرجوع الحميد لقرآنها العظيم كي تستفيد منه استفادة عامة ومن السنن الإلهية خاصة، ومن سنة الاستدراج على وجه الخصوص.

٢- الإسهام أيضاً في جعل النشء يتخلقونَ بأخلاق القرآن، وجعله قائداً لهم، وأن يعرضوا أنفسهم عليه بالنظر إلى ما فيه من المحامد الجمة، وإلى أعمالهم، وهذا من خلال التأمل والاعتبار بما حدث للأمم السابقة عندما خالفوا امر الله تعالى.

٣ – تربية الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة بمجموعها على أن لا يغتروا بنعم الله عليهم، وأن يخافوا على أنفسهم من أن يكون تواتر النعم عليهم استدراجًا لهم وليس إكرامًا وإنعامًا.

إشكالية الدراسة:

ترى كثيراً من المسلمين، يسير في دنياه بلا هدف، إلا أن يجمع من الدنيا ومن حطامها الزائل، كما ترى كثيرًا منهم، إلا من رحم الله، يتقلب في نعم الله، لكنه قائم على معصية الله، ومخالف لأوامره، فإذا قابل النعمة بالمعصية فهو مستدرج.

ولذلك فإن الباحث عن السعادة، لابد أن يقابل هذه النعم التي يتقلب فيها الليل والنهار، بشكر المنعم سبحانه وتعالى؛ حتى تستقيم دنياهم بدينهم.

منهج البحث:

لقد اتبعت فى هذا البحث المنهج الاستقرئي ثم التحليلى، وذلك من خلال ما يلي:

١ــ جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع البحث وتقسيمها.

٢ــ استخراج عناصر البحث وجزئياته من تلك الآيات وتفسيرها تفسيرًا مناسبًا لكل عنصر، ثم الترجيح لبعض الأقوال في حالة الاختلاف إن وجد.

٣ــ عزو الآيات القرآنية إلى سورها الكريمة، مع بيان رقم الآية، وحصرها بين قوسين.

٤ــ عزو الأحاديث من مظان كتب الحديث الصحيحة، فما كان فى الصحيحين اكتفيت بهما، وما كان فى غيرهما، ذكرت حكم العلماء عليه.

٥- الاستعانة بالمعاجم اللغوية في توضيح معاني بعض الألفاظ الواردة في ثنايا الدراسة.

٦- كتابة الآيات بالرسم العثماني من خلال مصحف المدينة النبوية المعتمد.

٧ــ ختمت البحث بأهم النتائج والتوصيات، وقائمة بأهم المصادر والمراجع.

خطة البحث: وقد اقتضت طبيعة البحث، تقسيمه إلى مقدمة، وتمهيد ، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو التالى:

المقدمة: وتحتوى على أهمية البحث، وخطته.

التمهيد: معنى سنة الاستدراج .

المبحث الأول: الأدلة من القرآن الكريم على سنة الله في الاستدراج.

المبحث الثاني: أين المسلمون من هذه السنة الإلهية؟ وما هي آثار مخالفتها؟.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

التمهيد:

أولاً: تعريف السنة:

السنة في اللغة: جاءت السنة في اللغة بمعانٍ كثيرة منها ما يلي:

١- السنة: السيرة: وسنة رسول الله ﷺ: سيرته، وإنما سميت بذلك لأنها تجري جرياً، ومن ذلك قولهم: امض على سننك وسننك، أي وجهك. وجاءت الريح سنائن، إذا جاءت على طريقة واحدة(١).

٢- السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة؛ معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق، ويقال للخط الأسود على متن الحمار: سنة، والسنة: الطبيعة، وامض على سننك أي وجهك وقصدك، وللطريق سنن أيضاً، وسنن الطريق وسننه وسننه وسننه: نهجه(٢).

السنة في الاصطلاح العام: وبتعدد هذه المعاني وتقاربها في اللغة؛ تعدد مدلول لفظ السنة في الاستعمال الاصطلاحي، واتخذ المفاهيم التي تناسبه في التخصص العلمي المستعمل فيه:

١- **في عرف الشرع بصفة عامة:** الطريقة المشروعة في الدين وهي هنا ضد البدعة(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، (٦١/٣)، بتصرف.

(٢) لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت: ٧١١هـ)، (٢٢٦/٣)، بتصرف.

(٣) الاعتصام: لأبي إسحاق الشاطبي، وتعريف محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية ١٨/١، والموافقات في أصول الشريعة: لأبي إسحاق الشاطبي شرح وتخريج: محمد عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣/٢.

٢- **في اصطلاح المحدثين:** ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية[١].

٣- **وفي اصطلاح الأصوليين:** ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن[٢]، وعلى هذا يشمل: قولهﷺ، وفعله، وتقريره، وكتابته، وإشارته، وهمه، وتركه[٣]،وقيل: ما كانت مرادفة للمستحب[٤].

٤- **وعند الفقهاء**[٥]: ما كان في مشروعيته دون الواجب وفوق المندوب[٦].

فهي اسم للطريقة المرضية المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب[٧].

---

(١) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، نشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م (٢٧٤/١).

(٢) شرح الكوكب المنير: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (ت: ٩٧٢هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، نشر: مكتبة العبيكان، ط: الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧مـ، (١٦٠/٢).

(٣) معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة: محمَّد بنْ حسَيْن بن حَسنْ الجيزاني، نشر: دار ابن الجوزي، ط: الخامسة، ١٤٢٧ هـ، ص:١١٨.

(٤) منتقى الألفاظ بتقريب علوم الحديث للحفاظ: الْحَارِثُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيْزِ الْحَسَنِيّ، ص:١٢.

(٥) الفقيه هو: العالم بأحكام أفعال المكلفين التي يسوغ فيها الاجتهاد، ينظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: د سيد عبد العزيز - د عبد الله ربيع، المدرسان بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر- نشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث (١٢٩/١).

(٦) معجم لغة الفقهاء: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، نشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، (ص:٢٥١).

(٧) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)، نشر: مؤسسة الرسالة ببيروت، ص:٤٩٧، و موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، نشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط: الأولى - ١٩٩٦م، ص:(٩٨٢).

٥- **والسنة عند المصنفين في العقائد:** ما كانت في مقابل البدعة[١].

ثانياً: تعريف الاستدراج.

الاستدراج لغة: استدرجه: يعني رقاه من درجة إلى درجة(٢).

واستدراج الله العبد: أن يأخذه قليلاً قليلاً، ولا يباغته(٣).

وقال في المفردات: "سنستدرجهم معناه: نأخذهم درجة فدرجة، وذلك إدناؤهم من الشيء شيئًا فشيئًا، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها"(٤).

وقال في القاموس المحيط: واستدراج الله تعالى العبد: أنه كلما جدد خطيئة جدد له نعمه، وأنساه الاستغفار، أو أن يأخذه قليلاً قليلاً ولا يباغته(٥).

إن سنة الله تعالى فيمن عصاه أيًا كانت معصيته: سواءً كفرًا أو تكذيبًا أو أي معصية أخرى، واستمر في عصيانه، وتمادى في غيه، ولم يتب إلى الله بعد أن أمهله، وجاءته النذر، وأقيمت عليه الحجج، أنه يستدرجه شيئًا فشيئًا، وذلك بأنه كلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، ثم يأخذه بغتة أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) منتقى الألفاظ بتقريب علوم الحديث، ص:١٢.

(٥) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس ورفاقه، مادة: (درج).

(٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة: (درج).

(٧) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة: (درج).

(٨) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة: (درج).

المبحث الأول: الأدلة من القرآن الكريم على سنة الله في الاستدراج

إن الأدلة على سنة الاستدراج كثرة، وسوف أذكر – بمشيئة الله تعالى – منها دليلين:

- **الدليل الأول: قوله تعالى:** (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)(١).

قال أهل التفسير: ومعنى الآية: والذين كذبوا بالقرآن سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم، وإنسائهم شكرها، فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية، لاغترارهم بذلك، وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة، قوله تعالى: (وَأُمْلِي لَهُمْ) معطوف على سنستدرجهم: أي أطيل لهم المدة، وأمهلهم وأؤخر عنهم العقوبة، وجملة: (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) مقرر لما قبلها من الاستدراج والإملاء، ومؤكدة له. والمعنى: إن كيدي قوي شديد لا يطاق لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي(٢).

أقوال السلف في الاستدراج:

وذُكر عن السلف الكثير من الأقوال: (فعن سفيان – رحمه الله – في قوله تعالى: (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)(٣) قال: "يسبغ عليهم النعم، ويمنعهم الشكر".

---

(١) سورة الأعراف، الآيات رقم ١٨٢، ١٨٣ .

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٣٥/٩ . تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦٣٨/٤ . تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، ص٢٢٢ . فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٥هـ، ٣٤٥/٢ .

(٣) سورة الأعراف، جزء من الآية رقم ١٨٢ .

وقال غير سفيان – رحمه الله –: "كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة".

وسئل ثابت البناني(١) – رحمه الله – عن الاستدراج فقال: "ذلك مكر الله بالعباد المضيعين".

وقال بعض السلف – رحمه الله – في تفسيرها: "نعمة الله فيما زوي عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا، وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيتَ الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه، فاحذره"(٢).

كلمات مضيئة معاصرة حول سنة الاستدراج:

قال أهل التفسير: "وهذه هي القوة التي لا يحسبون حسابها(٣)، وهم يشنون هذه المعركة الضارية ضد هذا الدين، وضد الأمة المستمسكة به، والملتقية عليه، المتجمعة على آصرته.. هذه هي القوة التي يغفلها المكذبون بآيات الله.. إنهم لا يتصورون أبدًا أنه استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون، ولا يحسبون أنه إملاء الله لهم إلى حين.. فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين.. إنهم يتولى بعضهم بعضًا، ويرون قوة أوليائهم ظاهرة في الأرض فينسون القوة الكبرى.. إنها سنة الله مع المكذبين.. يرخي لهم العنان، ويملي لهم في العصيان والطغيان، استدراجًا لهم في طريق

---

(٤) هو: ثابت بن أسلم أبو محمد البناني، مولاهم البصري، الإمام القدوة شيخ الإسلام، وكان من أئمة العلم والعمل – رحمة الله عليه – توفي سنة ١٢٧ه. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٢٠/٥ . وقال العجلي: "تابعي ثقة رجل صالح". انظر: تاريخ الثقات، أحمد بن عبد الله العجلي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٠٥ه/١٩٨٤م،

(٥) الضوء المنير على التفسير، جمع الشيخ: علي الحمد الصالحي من كتب الإمام ابن القيم، مؤسسة النور، (عنيزة)، ومكتبة دار السلام، (الرياض)، ١٤٤/٦ .

(١) ويقصد هنا: أعداء الدين كما ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)، سورة الأعراف، الآية رقم ١٨١ . انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١٧٣/٢ . في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٤٠٣/٣ .

الهلكة، وإمعاناً في الكيد لهم والتدبير. ومن الذي يكيد؟ إنه الجبار ذو القوة المتين، ولكنهم غافلون، والعاقبة للمتقين، الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.. ولقد كان القرآن يواجه بذلك التهديد الرعيب قومًا من المكذبين بآيات الله في مكة، والنص القرآني دائمًا أبعد مدى من المناسبة الخاصة"(١).

- **الدليل الثاني على سنة الاستدراج: قوله تعالى:** (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)(٢).

قال أهل التفسير: المعنى دعني يا محمد **صلى الله عليه وسلم** والمكذبين بالقرآن، وخل بيني وبينهم، ولا تشغل قلبك بهم، وكِلهم إليَ، فإني أكفيك إياهم، (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) سنأخذهم قليلاً قليلاً (مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) أي: من حيث لا يشعرون، (وَأُمْلِي لَهُمْ) أي: أمهلهم (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) الكيد: المكر، متين: شديد لا يطاق(٣).

وقيل: كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم، فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر، وإذا أذنب ذنبًا أن يعاجله بالاستغفار والتوبة(٤).

---

(٢) الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، نعمة الله النخجواني، ٢٧٥/١ . بحر العلوم، السمر قندي، ٥٧١/١ . في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٤٠٤/٣ .

(٣) سورة القلم، الآيات رقم ٤٤، ٤٥.

(٤) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، ص٧٦٠. معالم التنزيل، البغوي، ١٤٠/٧.

(٥) لباب التأويل، الخازن علي بن محمد، دار الفكر، ط ١٣٩٩ه/١٩٧٩م، ١٤٠/٧ .

تعليق غالي ونفيس لبعض المفسرين على قول الله تعالى: (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)(١).

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ) وهو وعيد وتهديد مزلزل.. والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول **صلى الله عليه وسلم:** خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث(٢)، وذرني لحربه فأنا به كفيل، ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث؟

فيا محمد **صلى الله عليه وسلم!** خل بيني وبين هذا المخلوق، واسترح أنت ومن معك من المؤمنين، فالحرب لا معك ولا مع المؤمنين، الحرب معي، وهذا المخلوق عدوي، وأنا سأتولى أمره.. أي هول مزلزل للمكذبين! وأي طمأنينة للنبي والمؤمنين.. المستضعفين..؟؟

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف! (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) وإن شأن المكذبين، وأهل الأرض أجمعين، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير. ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان، وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارون، وأن إمهالهم على الظلم والبغي والإعراض والضلال هو استدراج لهن إلى أسوأ مصير، وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب، مستحقين للخزي والتعذيب. وليس أكبر من التحذير، وكشف الاستدراج والتدبير، عدلًا ولا رحمة. فالله يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدلَه ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير، وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم، فقد كشف القناع ووضحت الأمور!

---

(٦) سورة القلم، الآيات رقم ٤٤ ، ٤٥ .

(١) قال المفسرون أن المقصود بالحديث هنا هو: القرآن الكريم.

إنه سبحانه يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وهو هنا – سبحانه – يكشف عن طريقته، وعن سنته التي قدرها بمشيئته"(١).

التحليل:

دل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)(٢). على أمور منها:

١- سنة إلهية، وهي الاستدراج للمكذبين بآيات الله، والعصاة، الذين تمادوا في تكذيبهم وعصيانهم، فكلما أحدثوا ذنبًا، أحدث الله لهم عقوبة، فإذا أخذهم لم يفلتهم.

٢- يجهل هذه السنة كثير من الناس خاصة من لا يتدبر القرآن الكريم.

٣- ينبغي أن يكون العبد على حذر ووجل من المعاصي، فيتركها من قريب ويتوب، وكلما جددت له نعمة شكرها، وكلما أحدث ذنبًا تاب منه من قريب.

٤- على أهل الحق والدعاة إلى الله أن يعلموا أن الله سبحانه معهم، ومؤيدهم، ومتكفل بأعدائهم، فما عليهم إلا أن يجتهدوا في الدعوة إلى الله، وتبليغ دينه.

٥- على الدعاة إلى الله أن يصبروا على أذى المدعوين، فإن قابلوهم بالعناد، والتكذيب، والاستهزاء، والأذى، فليطمئنوا إلى أن الله متكفل بهم، ومستدرجهم، ومنزل بهم عقابه لا محالة.

---

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٢٠، ٢٤٨/١٠ . التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ٥٧/١٥- ٥٩ . في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٦٦٨/٦ .
(٣) سورة الأعراف، الآية رقم ١٨٢ .

المبحث الثاني: أين المسلمون من هذه السنة الإلهية؟ وما هي آثار مخالفتها؟

إن الناظر في حال المسلمين اليوم يرى أن أكثر المسلمين – إلا من رحم الله– قد غفلوا عن هذه السنة الإلهية، بل كثير منهم يجهلها، ولا علم له بها، فكثير منهم ما زال قائمًا على معصية الله، متعديًا لحدوده، مضيعًا لفرائضه، معطلاً لأحكامه، منحيًا لشريعته ودينه، منهمكًا في الشهوات، مرتكبًا للمحرمات، ظالمًا للعباد، مفسدًا في البلاد، معرضًا عن دينه، مستهزئًا بإسلامه، موليًا لأعدائه، معاديًا لأوليائه، وغير ذلك.

وبرغم هذا كله نجدهم من أكثر الناس مالاً وجاهًا وسلطانًا، وما هذا إلا استدراج من الله لهم، وإملاء منه سبحانه لهم، حتى إذا أخذهم لم يفلتوا منه، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وسنة الله تعالى ماضية، ولا تحابي أحدًا، واعتبروا بمن سبقكم قديمًا وحديثًا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات:

١- تبين من خلال البحث أنه ينبغي على الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة بمجموعها ألاّ يغتروا بنعم الله عليهم، وأن يخافوا على أنفسهم من أن يكون تواتر النعم عليهم استدراجًا لهم وليس إكرامًا وإنعامًالهم.

٢- تبين أن الاستدراج فتنة توقع الإنسان في المهالك، إذا خالف العبد نهج الإسلام وشرعه، والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٣- كما ينبغي أن يكون العبد على حذر ووجل من المعاصي، فيتركها، وكلما تجددت له نعمة شكرها، وكلما أذنب ذنبًا تاب منه.

٤- أخيراً، أعملت جهدي فيما سطرته وفيما رأيته في طريقة سريان البحث، وما أردت إلا الخير والسداد، فإن وفقتُ لمرادي فهذا محض فضل من الله، وإن كانَ ثمةَ خطأ، أو تقصير، أو نسيان؛ فمني، وأستغفر الله العظيم.

ثانياً: أهم التوصيات:

١- ينبغي الاهتمام بالسنن الإلهية عموماً؛ وسنة الاستدراج خصوصًا.

٢- ينبغي الاعتناء بسنة الاستدراج، وتعليم النشء كيفية اتخاذها وسيلة لسعادة المسلم، وذلك بالمحافظة على نعم الله تعالى.

٣- ينبغي تعليم الناس أن النعم لا تدوم، إلا بمقابلة هذه النعم بشكر المُنعم سبحانه وتعالى.

٤- ينبغي على الدعاة إلى الله أن يصبروا على أذى المدعوين، فإن قابلوهم بالعناد، والتكذيب، والاستهزاء، والأذى، فليطمئنوا إلى أن الله متكفل بهم، ومستدرجهم، ومنزل بهم عقابه لا محالة.

المصادر والمراجع:

- **بحر العلوم**، السمر قندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، سنة: ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م.
- **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٤٢٠ه.
- **تاريخ الثقات**، أحمد بن عبد الله العجلي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة سنة: ١٤٠٥ه/١٩٨٤م،
- **تشنيف المسامع بجمع الجوامع** ، لتاج الدين السبكي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: د سيد عبد العزيز – د عبد الله ربيع، المدرسان بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر– نشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث.
- **تفسير الجلالين**، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى.
- **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، محمد بن عمر الرازي، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٤١٠ه.
- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**: محمد سيد طنطاوي– نشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة– الطبعة: الأولى، سنة: ١٩٩٨م.

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة ١٤١٧ه.
- **جامع البيان في تأويل القرآن:** محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت،طبعة سنة: ١٤٠٨ه.
- **ذم الهوى**، ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه/١٩٩٩م.
- **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، نشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، سنة: ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م.
- **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة: ١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م.
- **سير أعلام النبلاء**، لشمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الساسة، سنة: ١٤٠٩ه/١٩٨٩م.
- **شرح الكوكب المنير**، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (ت: ٩٧٢هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، نشر: مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، سنة: ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- **الضوء المنير على التفسير**، جمع الشيخ: علي الحمد الصالحي من كتب الإمام ابن القيم، مؤسسة النور، (عنيزة)، ومكتبة دار السلام، (الرياض).

- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة سنة: ١٤١٥ه.
- **الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية**، نعمة الله النخجواني، دار ركابي للنشر، الغورية، مصر، الطبعة الأولى، سنة: ١٤١٩ه/١٩٩٩م.
- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة السادسة عشر، سنة: ١٤١٠ه/١٩٩٠م.
- **القاموس المحيط**، مجد الدين محمد الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة: ١٣٩٥ه.
- **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)- تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري- نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.
- **لباب التأويل في معاني التنزيل**، علاء الدين علي بن محمد الخازن، دار الفكر، طبعة سنة: ١٣٩٩ه/ ١٩٧٩م.
- **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ) نشر: دار صادر بيروت، ط: الثالثة – ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥.
- **معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة**، محمَّد بنْ حسَيْن بن حَسَنْ الجيزاني، نشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الخامسة، سنة: ١٤٢٧هـ.
- **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، الطبعة الرابعة، سنة: ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

- **معجم لغة الفقهاء:** محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، شر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.
- **معجم مقاييس اللغة:** لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م– الأجزاء: ٦.
- **المعجم الوسيط،** إبراهيم أنيس ورفاقه، بدون.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة،** ابن القيم، الناشر مكتبة المعارف، الطائف، بدون.
- **المفردات في غريب القرآن،** الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، ودار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: ١٤١٢ه.
- **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،** محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت: بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، نشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٩٦م.